

الهرمينوطيقا، المصادر والتحويلات

2016-02-23 د. زهير الخويلدي

"نفهم من خلال هذه الشروط لماذا لا يختص نشاط التأويل فقط بملازمة المنهج كما وصفه هيدغر. فما يقتضيه ليس شيئاً آخر سوى تجذير الفهم كما يمارسه كل من يفهم."

جورج هانز غادامير - مقدمة حول مبادئ الهرمينوطيقا

لقد جاء في تعريفات الجرجاني أن التفسير في الأصل يعني الكشف والإظهار وهو أن يكون في الكلام لبس وخفاء، فيؤتى بما يزيله أو يفسره. وإذا كان الإيضاح يتم بإتيان كلام يبين المراد ويزيل الإبهام فإن التفسير أعم من ذلك ويكون بذكر المرادف المشهور. ويستعمل التفسير في الألفاظ ومفرداتها بينما يستعمل التأويل في المعاني بغية التوفيق بين ظاهر النص وباطنه أو صرف النظر عن المعنى الظاهر إلى محتمل.

إذا كان الهدف من التفسير هو التوضيح والشرح والإبانة والتعيين والتعليل والتحديد والتخصيص وذلك بأن يصير الشيء معقولاً والمجهول معلوماً ويصبح السر الخفي مكشوفاً وذلك بتعيين المدلول بما يدل عليه بما هو أظهر منه فإن الغرض من التأويل هو فهم الدلالة والمطلب والمقتضى والتفاهم مع المقصود.

تُرسمُ الهرمينوطيقا بأنها متعة الحقيقة من خلال لذة المعنى. ولقد عُرِّفت منذ نشأتها بفن التفسير أو علم التأويل، ولقد أجمع المؤرخون على أصولها الدينية ولكنها قامت بثورتها الداخلية واستقلت عن منابتها.

لقد أشارت الأديان التوحيدية الثلاث إلى وجود طبقات من المعنى للنص الديني وشرعت تعدد القراءات ولقد انطلق سبينوزا من المجاز والاستعارة والقصص والسرد والحكاية من أجل تشييد قراءة تاريخية نقدية للكتاب المقدس وأنتج بذلك شغلا هرمنوطيقيا افتتاحيا دون أن يدري. من

المعلوم أن منهج تفسير الكتاب المقدس يحاكي منهج تفسير الطبيعة الذي يعتمد على ملاحظة الظواهر ويقوم بجمع المعطيات اليقينية وينتهي إلى تعريف الأشياء الطبيعية. بناء على ذلك يحرص سبينوزا على تفادي الوقوع في الخطأ ويضبط منهج تفسير الكتاب المقدس بمبادئ ومعطيات يقينية قصد توضيح محتواه وتحصيل معرفة تاريخية دقيقة ولذلك يحاول استخلاص قواعد المنهج من الكتاب نفسه ومن تاريخه النقدي ويعتمد على العقل والنور الطبيعي في تكوين فكرة عما يتجاوز حدود الفهم البشري وبهذا المعنى يرفض أن ينسب إلى الكتاب تعاليم إلا التعاليم الواضحة التي يثبت صحتها الفحص التاريخي ويضع في سبيل ذلك ثلاث شروط:

- يجب أن تفهم طبيعة اللغة وخصائصها التي دونت بها أسفار الكتاب المقدس والتي اعتاد مؤلفوها التحدث بها. وبذلك يمكننا فحص كل المعاني التي يمكن أن يفيدها النص حسب الاستعمال الشائع.

- يجب تجميع آيات كل سفر وتصنيفها تحت مواضيع أساسية عددها محدود، حتى نستطيع العثور بسهولة على جميع الآيات المتعلقة بنفس الموضوع، وبعد ذلك نجمع كل الآيات المتشابهة والمجملة، أو التي يعارض بعضها البعض.

- يجب أن يربط هذا الفحص التاريخي كتب الأنبياء بجميع الملابس الخاصة التي حفظتها لنا الذاكرة، اعني سيرة مؤلف كل كتاب وأخلاقه والغاية التي كان يرمي إليها ومن هو وفي أي مناسبة كتب كتابه وفي أي وقت ولمن وبأي لغة كتبه...[1]

بيد أن الهرمينوطيقا بالمعنى الحديث للكلمة بدأت مع عالم اللاهوت والفيلسوف الألماني شلايرماخر وذلك لكونه أول من اعتبر المعنى يأتي من وجهة نظر القارئ وليس من وجهة نظر النص في حد ذاته. في نهاية القرن 19 ميلادي قام ديلتاي باكرا بتأطير معظم الأعمال والأفكار والرؤى في الهرمينوطيقا المعاصرة وذلك حينما قام بالتمييز بين فعلا "فسر" *expliquer* وفعل "فهم" *comprendre*. لقد أدت هذه الازدواجية المنهجية في طريقة اشتغال الفكر الهرمينوطيقي إلى فصل صارم بين علوم الطبيعة من جهة وعلوم الروح من جهة أخرى وهو ما سيتم تسميته عند المؤرخين بالعلوم الإنسانية في مرحلة لاحقة.

اللافت للنظر أن الألفاظ الفرنسية أكثر دلالة ووضوح من الألفاظ الألمانية (erklären ,
والدوافع الأسباب على ويشغل خارجية نظر وجهة عن يعبر ex-plicationالتفسير ،(verstehen
بينما يكشف الفهم compréhension عن وجهة نظر داخلية ويبحث في القيم والغايات التي تتحرك
نحوها الأفعال البشرية. فإذا كانت الظاهرة الفيزيائية يحكمها قانون وتقبل للتفسير فإن الظاهرة
الإنسانية تتميز بالوعي وتقتضي الفهم. لكن يمكن أن نتناول الفعل البشري والخطاب والعمل الفني
بوصفها أشياء على الطريقة الوضعية.

لقد فجر هذا الفصل في ألمانيا صراعا بين المناهج في نهاية القرن 19 ميلادي وظن العلماء أن
أسلوب التفسير وأسلوب الفهم هما طريقتان في العلم غير قابلتين للرد وفندت الوضعية وجود
أنظمة كثيرة للحقيقة. على خلاف التفسير الذي يتحرك ضمن دائرة الوحدة، فإذا وجد تفسير أن
للظاهرة الطبيعية أو الإنسانية فهما بالضرورة تفسيران متعارضان فإن التأويل لا يمكن البتة أن
يقتصر على الوحدة بل يرنو إلى التعدد ولا يعكس النزاع بين التأويلات ضعف الفكر البشري بل
يعبر عن خصوبة وثراء المعنى ولا نفاذيته.

لقد أتاح هذا المنعرج للفيلسوف الألماني هانز جورج غادامير الفرصة لكي يستعمل صفة
الهرمينوطيقي للإشارة إلى نمط من التفكير ينتمي إلى دائرة علوم الصور والأشكال ويضع شروط
إمكان وحدود التلاقي بين الناس فيما بينهم وملاقاتهم للعالم. ترنو الفلسفة الهرمينوطيكية إلى الكف
عن شغل الفصل بين الإنسان والطبيعة والعزوف عن إحداث التفرقة بين الناس وتحرص على تأسيس
التلاحم والتواصل والتفاهم بينهم.

لقد وضعت هذه الفلسفة كل ثقلها في الكلام واعتبرته قوة الوصل الذي فقدته العلم وفائض
المعنى الذي أضعفته الحقيقة الوضعية. كما منحت التجربة اللغوية حقيقة يمكن تقاسمها وليس
استيعابها وإرسالها فقط. فكيف أثر المنهج الهرمينوطيقي على الدراسات التاريخية والأدبية والدينية
في الحقبة المعاصرة؟

* كاتب فلسفي

.....

المصادر والمراجع:

سبينوزا (باروخ)، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة د حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، طبعة 2005.

معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تأليف د جلال الدين سعيد، دار الجنوب، صفاقس، الجمهورية التونسية، طبعة 2004.

- Schleirmacher, Herméneutique, 1809-1810, Traduit par C. Berner, Paris/ Lille, le Cerf –PUL, 1987.

- Diltey Wilhelm, le monde de l'esprit tome I, édition Aubier, Paris 1947.

- Gadamer J-H, Vérité et Méthode. Les grandes lignes d'une herméneutique philosophique (1960), une nouvelle traduction par Pierre Fruchon, Jean Grondin et Gilbert Merlio, Edition du Seuil, Paris, 1996.

[1] سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، شاهد مذكور، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تأليف د جلال الدين سعيد، دار الجنوب، صفاقس، الجمهورية التونسية، طبعة 2004، 39- مادة تأويل، صص 90-91.

.....

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبأ المعلوماتية